وحدة سوسيولوجيا المجتمع المغربي. للأستاذ امبارك الطايعي
تلخيص: أناس عوينات

1- الشروط التاريخية و المعرفية وراء ظهور السوسيولوجيا بالمغرب:

- ارتبط ظهور السوسيولوجيا بالمغرب بالاستعمار الفرنسي الذي استفاد من تجربته في الجزائر وحاول تجاوز أخطائه فيها، و هكذا عمل المارشال ليوطي في المغرب على: - احترام المؤسسات و العادات والتقاليد. - تجنب الحكم المباشر. - تشجيع الدراسات السوسيولوجية لفهم المجتمع المغربي، واستعمالها كأداة لغزو المغرب و تهدئته.
- تنقسم السوسيولوجيا الكولونيالية إلى قسمين: 1- سوسيولوجية رسمية مرتبطة بالإدارة الاستعمارية. 2- سوسيولوجية أكاديمية "عفوية".

أولا: البعثة العلمية وهاجس البحث السوسيولوجي.(السوسيولوجيا الرسمية)

- تأسست البعثة العلمية بطنجة سنة 1904 و ترأسها le Chatelier ثم "ميشو بيلير" سنة 1907.
- اعتمدت الوصف الإثنوغرافي عن طريق رحلات المستكشفين الأوائل.
- من أهم الرحالة الذين كتبو عن المجتمع المغربي في إطار هذه البعثات هناك "ميشو بيلير" و "أوغوست موليراس" (صاحب "المغرب المجهول")، وماكينزي و دوفوكو و إدموند دوتي...
- إدموند دوتي: تنقسم دراساته إلى 3 أقسام وهي: الرحلات الاستكشافية، ودراسات لبعض الظواهر الاجتماعية، ودراسة الطقوس الدينية.

وهو صاحب أول دراسة يمكن اعتبارها دراسة سوسيولوجية علمية أصدرها سنة 1909 تحت عنوان "السحر والدين في إفريقيا الشمالية" وله أيضا "حول مراكش" و "في القبيلة".

أطروحة دوتي حول السحر والدين في شمال إفريقيا متأثرة بالسوسيولوجيا الفرنسية و التطورية التايلورية (إدوارد تايلور) و المقارنية الفريزرية (جيمس فريزر). ولها أهمية إثنوغرافية كبيرة، لكن نتائجها لم تخرج على نطاق تطبيق النظريات السائدة آنذاك.

وقد شكلت دراساته إطارا معرفيا للمرحلة الاستكشافية السابقة على التأويل النظري السوسيولوجي.

ثانيا: شارل لوكور وحدود تطبيق السوسيولوجيا العفوية.

- يمثل المنهج الدوركهايمي في الدراسات الكلونيالية. فبالنسبة له تقتضي سوسيولوجيا المجتمع المغربي الملاحظة الخارجية المنهجية من أجل تفسير كل ما هو متداول و مفهوم لدى المغاربة لغيرهم.
- خلف مجموعة من الدراسات في سوسيولوجيا المجتمع المغربي من بينها "المهن والطبقات الاجتماعية بأزمور" و"الطقس والأداة" و " note sur les moussems de femmes " و قد تحدث في كتاباته عن المشاكل الاجتماعية للاستعمار، و تعد أعماله نموذجا لتحرير سوسيولوجيا المجتمع المغربي من الارتباط بالفكر الاستعماري.

- رغم زخم و أهمية ما أنتجته السوسيولوجيا الكلونيالية، إلا أنها ظلت رهينة رؤية ثنائية تؤطرها مجموعة من التقابلات من قبيل: بلاد المخزن/بلاد السيبة، العرق العربي/العرق الأمازيغي، الشرع/العرف، المجتمع الحضري/المجتمع القروي، الاسلام الرسمي/الاسلام الشبي، سلطة الجماعة/سلطة الدولة... و في هذا الصدد يقول بول باسكون أن دراسة المجتمع المغربي لم تتم في كليته سوى بطريقة سطحية جدا و غير متكاملة. و يقول جاك بيرك أنه يعتريها نوع من النقص و القصورالمنهجي.

2- الإنتاج الكولونيالي وأسسه المنهجية و المعرفية:

- **أطروحة روبير مونطاني وإشكالية البربر و المخزن**

- أطروحته عبارة عن دراسة اجتماعية مورفولوجية، اهتمت بسكان الأطلس الكبير جنوب المغرب. و هي عبارة عن بحث في الجمهوريات البربرية كما سماها. اعتمد فيها علمي التاريخ و الأنثروبولوجيا، نظرا لتصوره التكاملي للعلوم الإنسانية عكس التخصص الضيق للمنهج الدوركهايمي. و قد أشاد في هذا الصدد بإسهامات ابن خلدون في فهم الحياة الداخلية لهذه البلاد.
- يعتبر مونطاني أن الجمهورية البربرية تنتظم في إطار "الاتحادية" التي تنقسم إلى ما بين 3 و6 قبائل، و القبيلة تنقسم بدورها إلى ما بين 3 و8 "فرقات"، و "الفرقة" تنقسم إلى "فخذات"، و"الفخذة" إلى دواوير أو قرى. لكنه يقر بنسبية هذا التقسيم الذي أخذه أساسا من الإدارة الاستعمارية و التي تعتمده لضرورات التمييز و التصنيف. و إلا فإن السكان المحليين قد يعتمدون تسميات تختلف من مكان لآخر. كما أن الاتحادات لا وجود لها في بعض الأحيان، والقبائل أيضا قد لا تدل على وحدات متسعة.
- يسمى محليا الدوار "بالمدشر" الذي يضم عادة من 20 إلى 30 مسكنا يضم عائلتين أو ثلاث يسمى "اخص" أو "العظم"، و الذي تؤطره حسب مونطاني عصبية أبوية، وعادة ما يتكون من مجموعة متفرقة من البيوت، و تنتظم "المداشر" في إطار "الموضع" و هو الإسم المحلي للفخذة، و الذي يضم ما بين 3 و4 "مداشر" و يضم مسجدا لصلاة الجمعة ومخزنا جماعيا يسمى "أكادير" و تتشكل ضمنه "جماعة" من الرجال القادرين على حمل السلاح و هي تنظيم إداري للقيام ببعض المهام المحلية. و تنتظم أكثر من 3 "مواضع" في إطار "تقبيلت" و هي الوحدة السياسية.
- وأشار إلى أهمية "الخمس" الذي كان يبدو من تحديد المخزن فقط، لكنه اكتشف أن له حياة خاصة و يسمى عند السكان المحليين ب"أوفوس". وقال عنه أنه في فترة "السيبا" عرف تكوين برلمان لدولة صغرى مستقلة. كما تطرق لأهمية الفرقة التي يعتبرها الخلية السياسية للدولة البربرية.
- وعن التحالفات، فقد أشار إلى وجود نوعين منها و هما: الصف واللف.
- الصف: تنقسم التجمعات الصغرى كالفخذة إلى قسمين من العائلات المتحالفة و التي تربطها قرابة الدم، تسمى الصفوف.

- اللف: هو اتحاد عدد من فروع القبيلة الواحدة، والتي قد تنقسم إلى حلفين متكافئين، يجمع كل حلف منهما الانتماء إلى حيز جغرافي مشترك رغم أن الحدود تكون غير قارة.
- لا تقتصر هذه التحالفات على الجانب العسكري بل تتعداه إلى تنظيم حفلات جماعية في نهاية الموسم الفلاحي، يتم خلالها تجديد العهد، وتبادل المصاهرة، وتبادل المنتوجات الزراعية و البضائع المستوردة.

- **<u>أطروحة جاك بيرك، وجه آخر من البحث الاجتماعي بالمغرب.</u>**

- جمع بين بحث الظواهر الاجتماعية و العمق التاريخي. و اعتمد فيها الملاحظة المباشرة والمقارنة والحدس المعرفي واستنطاق الوثائق. و في هذا السياق استعمل "التحليل القانوني" لتحليل أسماء العائلات و الأمكنة.
- أطروحته حول "البنيات الاجتماعية للأطلس الكبير" لا تندمج ضمن الإيديولوجيا الكولونيالية. بعد 25 سنة راجعها بول باسكون مراجعة نقدية. بعد الوقوف على التغيرات التي عرفتها منطقة "سكساوة" التي كانت موضوع الأطروحة.
- توصل بيرك عبر البحث التاريخي والوثائقي(رغم صعوبته) إلى وجود نظام "سكساوي" خاص يظهر في مظاهر السلوك الجماعي و الخصائص العقلية و النفسية التي تحكم العلاقات بين الأفراد و الجماعات ضمن جدلية الصراع الموروث عن الماضي.
- استطاع تتبع الفروع القبلية ومعرفة أسمائها، ومعلومات حول البنية العقارية وطرق تشكلها، من خلال الوثائق التي تحتفظ بها بعض العائلات بعد مقارنة محتوياتها بالبنية الاجتماعية الحالية.

- **<u>المقاربة الانقسامية للمجتمع القروي بالمغرب: التحليل و الحدود. إرنست غيلنر نموذجا.</u>**

- انطلقت النشاطات الاستكشافية للمغرب إثر هزيمة معركة إسلي سنة 1844 وبلغت ذروتها مع "شارل دوفوكو" سنة 1880. و انطلقت "الدراسات النسقية" حول المجتمع المغربي مع حركة البعثة العلمية وكانت دراسات شمولية اهتمت ب:

النسق المخزني: الذي اعتبرته يتوفر على عناصر تنظيم بيروقراطي يرأسه السلطان، يقابله تنظيم قبلي قوي ومحكم البناء. وتتميز العلاقة بينهما بالصراع، فبالنسبة للقبائل يتمتع السلطان فقط بالسلطة الدينية وواجب الدفاع عن البلاد ضد الغازي الأجنبي.

النسق القبلي و العالم القروي: في إطار ثنائية "بلاد المخزن/بلاد السيبا" و "المغرب النافع/المغرب غير النافع" اعتقدت هذه الدراسات أن المغرب تسوده سلطة القبائل في معظم المناطق الجبلية و المحاذية للصحراء و تكتفي سلطة المخزن بالمدن و أطرافها و السهول التي لا تمثل إلا جزءا صغيرا من العالم القروي.

الزوايا و المرابطين: تعتقد هذه الدراسات في وجود نوعين من الإسلام في المغرب: إسلام رسمي أرثوذوكسي هو إسلام العلماء و الشرفاء والفئات الأرستقراطية و ينتشر في المدن. و إسلام شعبي في البوادي يشكل مزيجا من المعتقدات الموروثة المتجذرة في التاريخ، والعقائد الإسلامية الأرثوذوكسية. و هذا الإسلام الشعبي يقدس "المرابطين" و هم رجال دين لهم حظوة عند القبائل ويتدخلون في شؤون الجماعة الدينية والاجتماعية والاقتصادية.

سيكولوجيا الإنسان المغربي: و تميز طرحهم في هذا الصدد بسيادة النزعة الأورومركزية، حيث تم تقديم عقلية الإنسان المغربي على أنها ميالة إلى التدين و قاصرة عن الاستدلال و التأمل النظري و تنفر من محاولة التركيب و التحليل وغيرها من النعوت المعيارية و أحكام القيمة.

- برز نموذج التحليل الانقسامي في إطار دراسة الأنثروبولوجيا الأنجلوساكسونية (البريطانية أساسا) للمجتمعات "البرية" (البدائية/المتوحشة) في إفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية.
- مفهوم الانقسامية حسب بول باسكون مأخوذ من البيولوجيا حيث يدل مفهوم الكائنات الانقسامية على العضويات الحية التي تتكاثر عن طريق الانقسام.
- يعتبر إيميل دوركهايم أول من استعمل مفهوم "الانقسامية" في السوسيولوجيا. فبعد أن قسم أنماط التضامن الاجتماعي إلى تضامن عضوي يسود المجتمعات الصناعية و آخر آلي(ميكانيكي) يسود المجتمعات العشائرية والتكتلات البسيطة. خلص إلى أن هذه الأخيرة مجتمعات انقسامية تقوم على تكرار تكتلات متشابهة، عشائر ذات طبيعة مزدوجة عائلية وسياسية.
- أهم سمات المجتمعات الانقسامية: +محورية وأسطورية النسب والاعتقاد في الجد المشترك +ضعف تقسيم العمل الاجتماعي + أهمية نظام القرابة و الروابط العائلية وغياب الملكية الفردية +لامركزية السلطة(الفوضى المنظمة) يقوم شخص، يكون أجنبي في الغالب، بالوساطة بين المتخاصمين يعرف في القبائل المغربية ب"أكرام" أو المرابط أو الولي أو الصالح. +قوة الوعي الجمعي. +أهمية الدين كعامل للضبط الاجتماعي.+الانقسام أو التجزأ لتجنب مركزة السلطة.
- في المجتمعات الانقسامية يتم التوازن عبر عمليتي الانصهار و الانشطار. فهي تنقسم بفعل التعارض إلى أقسام متساوية. و تتكتل في صفوف و لفوف متحالفة ضد الاعتداء الخارجي. و تكون هذه التحالفات أيضا متساوية لضمان الاستقرار.
- قام "إيفانز بريتشرد" بدراستين لحالتين من المجتمعات الانقسامية و التي وجد فيها الخصائص المذكورة أعلاه، و هي دراسة قبائل "النوير nuer" السودانية و دراسة الحركة السنوسية بليبيا.
- من الباحثين الذين استلهمو النموذج الانقسامي لدراسة القبائل المغربية هناك الباحث "إرنيست غيلنر" في كتابه "صلحاء الأطلس". و الذي اعتقد أن قبائل شمال إفريقيا انقسامية بامتياز و انتقد الأبحاث الفرنسية للحياة السياسية للأمازيغ بسبب تجاهلها للبنية القبلية الانقسامية.
- أشار غيلنر بهذا الصدد إلى هشاشة السلطة و التنظيم السياسيين عند قبائل الأطلس الكبير، فالأمغار أو الرئيس المنتخب لقيادة ثلاث عشائر متحالفة مثلا يتم انتخابه في كل سنة من عشيرة و ليس له حق ولاية ثانية و يتم انتخابه من طرف العشيرتين اللتين لا ينتمي إليهما ويشرف الأكرام أو المرابط أو الولي الصالح على هذه الانتخابات و الذي يكون محايدا ولا ينتمي لأية عشيرة من العشائر الثلاث و يقطن في منطقة محايدة خارجة عن مناطق نفوذها و فيها يتم الاقتراع. و تكون سلطته هشة تنبني فقط على الأعراف و لا يحوز أية قوة مادية لردع العنف و لا يتوفر على شبكة مصالح إدارية أو أمنية.

- يعتقد غيلنر أن هذا النظام هو الذي ساعد هذه القبائل على تفادي السقوط في قبضة الاستبداد فهي تتخذ مسافة من السلطة المركزية. و هذا يجعلها هامشية لكنه يضمن استمراريتها و توازنها.
- ويعتقد أن هذا التوازن يتم بواسطة المرابط أو الأكرام الذي يضطلع بأدوار مهمة داخل القبيلة بسبب حياده و مكانته الروحية و الدينية ، فهو بذلك فوق كل نزاع قبلي انقسامي.
- **نقد النموذج الانقسامي**: هناك مجموعة من المؤاخذات على النموذج الانقسامي منها:

أ- إسقاط النموذج: بمعنى إسقاط النموذج الدوركهايمي الذي استكمله إيفانز بريتشرد بدراسته لقبائل النوير السودانية والحركة السنوسية. حيث اعتبر غيلنر أن البنيات الاجتماعية المغربية مماثلة لهذه البنيات التي درسها بريتشرد.

ب- إهمال البعد التاريخي و التراتب الاجتماعي: سقطت هذه المقاربة في القول باستاتيكية البنيات القبلية المغربية و فصلتها عن سياقها التاريخي و كذلك أعرضت عن التراتب الاجتماعي. حيث أشار "عبد الله حمودي" إلى أن غيلنر لم يفطن إلى وجود عائلات كبرى تحظى بالتقدير وتحتكر السلطة و هي التي يشار إليها ب"اختارن" و "اختار" تعني الشيخ أو كبير القوم. و تحتل هذه العائلات مكانتها بسبب عراقة النسب الذي يشرعن التفاوتات.

ت- إهمال أشكال الملكية و إغفال تأثير الإسلام على نظام الملكية و بالتالي عجز هذا النموذج على تحديد التناقضات القائمة بين أشكال الملكية ونماذج الانقسام. و آليات دفاع العشائر على أراضيها.

ث- نقد نظرية الجد المشترك: يرى الأستاذ حمودي أنه بسبب الصراعات القبلية يحدث أن تستولي قبيلة على أخرى و تضم أراضيها و تغير أسماء الأماكن و قد يتعايش المغلوبون مع الغالبين كلاجئين قبل الاندماج التام و من هنا تسقط نظرية الجد المشترك لأعضاء القبيلة في المغرب و من الأمثلة التي يوردها على ذلك، قبيلة أيت عطا التي غزت بعض القبائل المجاورة في الأيام الأولى للاستعمار. لكن مقولة الجد المشترك تستعمل في التمييز بين الأعضاء الذين لهم حق السيادة و أعضاء القبائل المغلوبة. فحق السيادة لا يكون إلا لمن ينتسب لجد القبيلة الغالبة.

ج- المرابطون وطوبى التحكيم: يرى الأستاذ حمودي أن غيلنر أخطأ في الاعتقاد في سلمية و حياد المرابطين أو الصلحاء الذين يرجع إليهم سبب استقرار القبائل. فهو يعود إلى بعض الدراسات التي أثبتت أن الصلحاء كانوا رجال حرب مكلفون بإخماد الفتن بالقوة. و كانوا في الغالب متعاونين مع السلطان و وسطاء بين المخزن و القبائل وكانوا يخضعونها عبر الترغيب أو الترهيب. و كأمثلة على ذلك يورد الأستاذ حمودي شيوخ بعض الزوايا التي كانت تضطلع بهذه المهام التي تتجاوز التحكيم كما يعتقد غيلنر.

انتهى